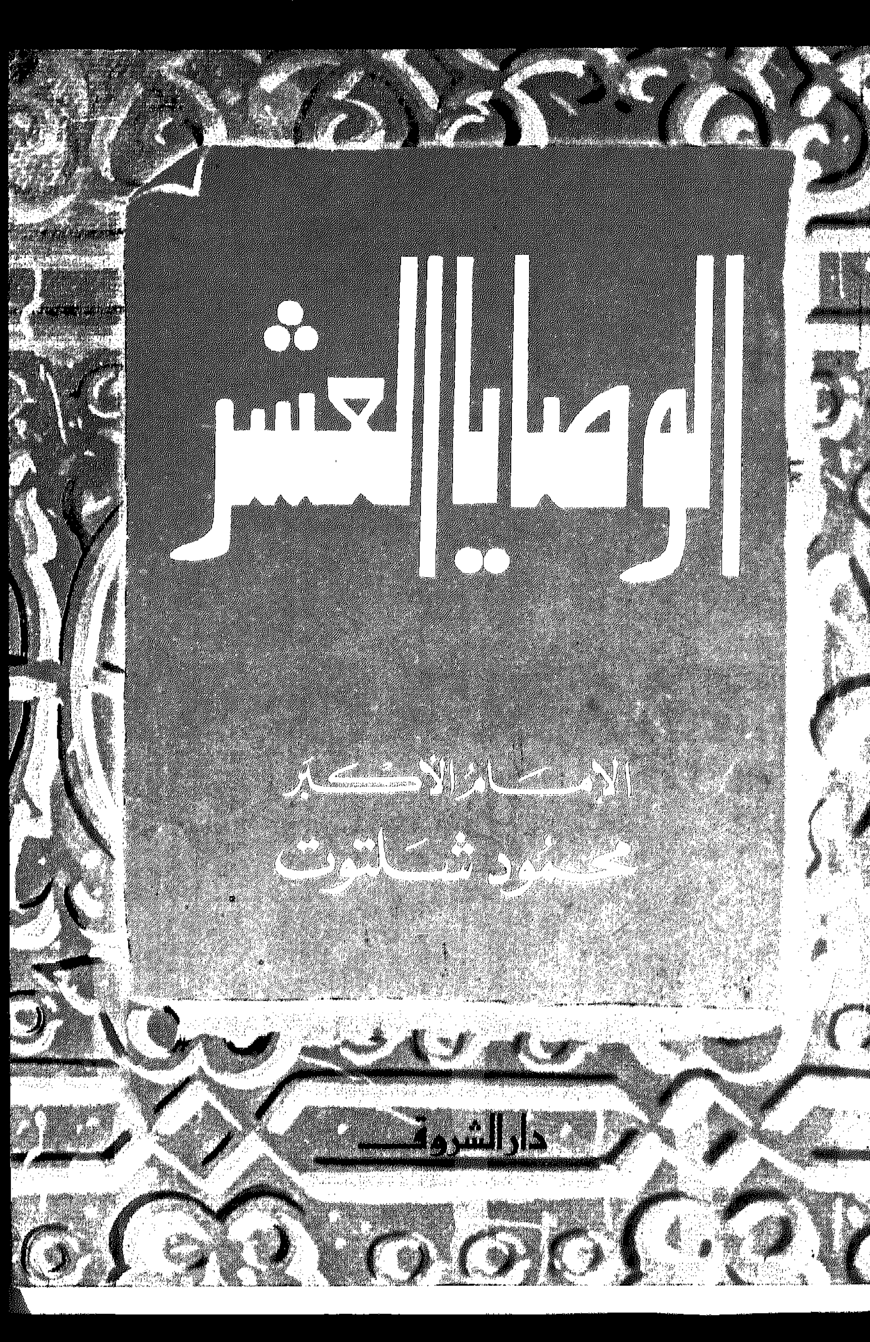

الوصايا العشر
الإمام الأكبر
محمود شلتوت
دار الشروق

الوصايا العشر

الطبعة الخامسة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET, LONDON W1 UK TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 25778G

الوصايا العشر

للإمام الأكبر

الشيخ محمود شلتوت

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة ، أقدم أولى محاولاتي لتجميع تراثه الخالد ، ذلك التراث الذي كان له أكبر الأثر في بيان ما جاءت به الشريعة الغراء . شارحاً علاقة الإنسان بخالقه وواجبه نحوه وواجبه نحو نفسه ومجتمعه ، موضحاً المشكلات التي تجابه المجتمع الإسلامي وحكم الشرع فيها . ومفسراً للقرآن الكريم تفسيراً جليا واضحاً خالياً من الاسرائيليات التي كانت عاملاً خطيراً في زعزعة كثير من الناس ، وفهم الدين الحنيف فهما خاطئاً نتيجة لعصور التخلف الفكري والجمود العقلي والتدهور الخلقي الذي أصاب العالم ردحاً من الزمن فأبعد الناس عن جادة الطريق ، فوضح أمامهم السبيل وأنار قلوبهم بنور الايمان السليم ؛ فإلى القرآن الكريم .

عميد
هادي محمود شلتوت

الوصايا العشر
من سورة الأنعام

قال الله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1] .

هذه آيات ثلاث جاءت في أواخر سورة الأنعام ، وسورة الأنعام هي أول سورة مكية طويلة في الترتيب المصحفي ، ولم

---

(١) سورة الأنعام ١٥١-١٥٣ .

يسبقها من المكي في هذا الترتيب سوى الفاتحة التي افتتح بها القرآن الكريم . وقد اقتضت حكمة الله أن يبدأ الرسول بالدعوة إلى توحيد الله في الخلق والإيجاد والعبادة والتقديس والتشريع والهداية ، وبالدعوة إلى الإيمان بالوحي والرسالة ، وإلى الإيمان بالبعث والجزاء . وهذه الثلاثة هي العناصر الأولى للدين عند الله ، وهي القضايا الدينية الكبرى التي كان الإيمان بها في الوضع الإلهي هو حجر الأساس لكل إصلاح بشري ، والتي لو آمن البشر بها ، وخضع فيها لمقتضى العقل المستقيم ، والوجدان الفطري السليم لبرأت الإنسانية من أمراضها ، ووصلت بنورها إلى أقصى درجات السعادة في متعة من الأمن ، ورغد من العيش ، وطيب من الحياة : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1] ، « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »[2] .

وقد عنيت سورة الأنعام عناية تامة كاملة بتوجيه القلوب إلى هذه القضايا الثلاث على وجه لم نره في غيرها من السور

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

(٢) سورة محمد ٢ .

المكية : فاسترعت الأنظار إلى أدلة التوحيد في الأنفس والآفاق ، وإلى ما في الكون من آثار القدرة النافذة ، والسلطان القاهر ، والعلم الشامل ، والحكمة البالغة ، وكشفت عن شبهة القوم المتوارثة في إنكار الوحي والرسالة ، وضربت لهم الأمثال ، وصرفت الآيات ، ونوعت أدلة البعث والجزاء : « وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون »[1] وعرضت لتفنيد مزاعم القوم في التحليل والتحريم بحسب الأهواء والشهوات ، وعرضت لشبهة البشرية الضالة التي اعتمدت عليها في تسويغ شركها واغتصابها حق الله في التحليل والتحريم : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء »[2] .

سبحت في كل ذلك سورة الأنعام سبحاً طويلاً حتى لم يبق للمنكر إلا أن يعض بنانه ، وينكس رأسه أمام الحق وروعته ؛ ومن هنا عرفت سورة الأنعام بسورة الحجاج وسورة الحجة البالغة . وبعد أن ركزت على القضية القوية : قضية التوحيد ، وقضية الوحي ، وقضية البعث – أمرت رسول الله في هذه الآيات الثلاث التي تلوناها أن يبين للناس أصول شرع

(١) سورة الأنعام ١٠٥ .

(٢) سورة الأنعام ١٤٨ .

الله ودينه مما يتوقف عليه صلاح البشر ، صلاح الفرد والجماعة ؛ فذكرت تحريم الشرك بالله ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وتحريم قتل الأولاد ، وتحريم الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله ، وتحريم مال اليتيم ، وأمرت بإيفاء الكيل والميزان وأمرت بالعدل ، والوفاء بالعهد ، وأخيراً أمرت باتباع صراط الله المستقيم الذي يدعو اليه رسوله ، ويتضمنه كتابه ، وتلك عشرة كاملة ، أطلق العلماء عليها اسم « الوصايا العشر » لتذييلها في آياتها الثلاث بقوله تعالى : « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »[1] « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »[2] « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[3]. وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » إلى قوله : « لعلكم تتقون » .

« وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم يبايعني على هؤلاء

---

(١) سورة الأنعام (بعض آية ١٥١) .
(٢) سورة الأنعام (بعض آية ١٥٢) .
(٣) سورة الأنعام (بعض آية ١٥٣) .

الآيات الثلاث ؟ ثم تلا : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. » إلى آخر الآيات .

وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : لما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب — خرج إلى منى وأنا وأبو بكر معه فوقف على منازل القوم فسلم عليهم وردوا عليه السلام ، وكان في القوم مفروق بن عمرو وكان أغلبهم لساناً وأوضحهم بياناً ، فالتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فقال : أدعو إلى توحيد الله وإلى أني رسوله ؛ فقال له : وإلام تدعو يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات . فقال له مفروق ، وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ! فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[1] ؛ فقال له مفروق : دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك !

---

(١) سورة النحل ٩٠ .

هذه مكانة آياتنا الثلاث من سورة الأنعام . وهذا مبلغ تأثيرها في نفوس العرب أهل الجاهلية ، وكيف لا يكون لها تلك المكانة . أو هذا الأثر وقد جمعت بألفاظها القليلة وروعتها القوية . وسلطانها النافذ إلى الأعماق – أصول الفضائل في العقيدة . وفي الأسرة . وفي الأموال ، وفي الأنفس ، وفي العدل . وفي العهد ، وفي طهر النفوس من المدنسات ؛ ثم ختمت بملاك الأمر كله وهو التزام الصراط المستقيم ، صراط الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين الذي دعا اليه كل رسول . ونزل به كل كتاب .

وقد أيد هذه الوصايا وشهد بحقيقتها كل اجتماع موفق !

ولهذا . ولما تضمنته هذه الوصايا العشر – اخترت آياتها الثلاث لأن تكون أول أحاديثنا في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

وعلى من يرغب السير معنا في هذه الأحاديث أن يقرأ سورة الأنعام مرة ومرة ، ثم يقف معنا عند هذه الوصايا العشر ، حتى نفقه أحكامها وأحكام شواهدها من كتاب الله وسنة رسوله .

الوصايا العشر

أسلوب القرآن فيها

قال الله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. »[1] الآيات الثلاث التي افتتح بها الربع الأخير من سورة الأنعام ، والتي عرفت باسم « آيات الوصايا العشر » ؛ إذ أن كل آية منها ختمت بقوله تعالى : « ذلكم وصاكم به » وقد بينا فيما سبق مكانة هذه الآيات من السورة ومكانتها في نفوس القوم حينما تلاها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، وقد رسمت هذه الآيات للإنسان طريق علاقته بربه الذي يرجع اليه الإحسان في كل شيء : « ألا تشركوا به شيئاً » ، ووضعت الأساس المتين الذي يبنى عليه صرح الأسر المكونة للأمة القوية الناجحة في الحياة « وبالوالدين إحساناً » ؛ وسدت منافذ الشر الذي يصيب الناس من الناس في الأنفس والأعراض والأموال ، وهي عناصر لا بد لسلامة الأمة من سلامتها : « ولا تقتلوا أولادكم » ، « ولا تقتلوا النفس » ، « ولا تقربوا مال اليتيم » ؛

---

(١) سورة الأنعام ١٥١–١٥٣ .

ثم ذكرت أهم المبادئ التي تسمو بالتزامها والمحافظة عليها الحياة الاجتماعية الفاضلة : « وأوفوا الكيل والميزان » ، « وإذا قلتم فاعدلوا » ، « وبعهد الله أوفوا » وكانت الوصية الأخيرة أن هذه الوصايا هي الصراط المستقيم الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم يبينه ويدعو اليه ، بل هي صراط الله العام الذي بعث به جميع رسله ، وأنزله في كل كتبه « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وقد نزلت هذه الوصايا على النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب لا نعرف شيئاً من تعاليم القرآن نزل بمثله ؛ فقد بدأت بكلمة « قل » ، والبدء بكلمة « قل » على وجه العموم يدل كما يظهر من تتبعها في القرآن – على نوع خاص من العناية والاهتمام بالتعاليم التي ربطت بها : « قل هو الله أحد »[1] ، « قل أعوذ برب الفلق »[2] ، « قل أعوذ برب الناس »[3] ، « قل من يكلؤكم بالليل والنهار »[4] ، « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة »[5] الخ .

---

(١) سورة الاخلاص ١ .

(٢) سورة الفلق ١ .

(٣) سورة الناس ١ .

(٤) سورة الأنبياء ٤٢ .

(٥) سورة يس ٧٩ .

والبدء بكلمة : « قل » – وإن كان كثيراً في القرآن وتحظى منه سورة الأنعام دون غيرها من السور بالنصيب الأكبر – قد اقترن في هذه الوصايا العشر بجملة من دلائل العناية والأهمية ، جعلته أسلوباً وحيداً انفردت به تلك الوصايا ؛ لما لها من المكانة الكبرى في السمو بحياة الفرد وحياة المجتمع .

ولتنظر معي في كلمات : « تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » فكلمة : « تعالوا » تدل على طلب المتكلم إقبال المخاطبين عليه وانضمامهم تحت لوائه ؛ حتى لا تذهب بهم الأهواء في سبيل الغي والفساد .

وليس من ريب في أن هذا أسلوب قد قرت في النفوس قوته في تقريب البعيد وتأليف النافر المعرض . وقد امتن الله على نبيه هدايته اليه في الدعوة ، وأشار إلى أثره الطيب في إقبال الناس عليه واستجابتهم له والتفافهم حوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »[1] .

ثم أمر به في كتابه وحث عليه كل داع اليه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩ .

أحسن »[1] ، « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم »[2] . وجدير بمن يتصدى لدعوة الناس إلى الخير وحثهم على الفضيلة أن يقصد في دعوته وتوجيه خطابه إلى مثل هذا الأسلوب الذي يجمع ولا يفرق ، ويؤلف ولا ينفر ، وأن يعمل جاهداً في تطهير أسلوبه من الكلمات الجافة المنفرة التي تحمل العنف والغلظة أو الشتم والتجهيل ، أو تسجل على السامعين – وهم مؤمنون – ضياع الدنيا والآخرة واستمراء المعاصي والفسوق ، إلى غير ذلك مما يحرج الصدور ، ويذهب بأمل الناس ورجائهم في عفو الله ومغفرته ، وفي الاقتصار على التلاوة إيحاء قوي لتقدير المتكلم لمكانة المخاطبين وارتفاعهم إلى درجة لا تكلفه أكثر من أن يتلو عليهم ؛ فهم عنده بعقلهم حريصون على أن يسمعوا وحريصون على أن يعملوا بما يسمعون ؛ فهو يقتصر على أن يتلو عليهم ، دون أن يكلفهم حتى السماع فضلاً عن التنفيذ ، وكأنه يرى أن السماع والتنفيذ مما تكفله عقولهم ، وليس به حاجة إلى دعوتهم إليه ، وهذا من غاية اللطف في توجيه الخطاب وحسن الموعظة : « تعالوا أتل » . وماذا أتلو ؟

---

(١) سورة النحل ١٢٥ .

(٢) سورة فصلت ٣٤ .

أتلو ما حرم ربكم عليكم ، ربكم الذي خلقكم ورباكم وغمركم بفضله وإحسانه ورسم لكم طريق الخير والهداية ، فهو لا يحرم عليكم إلا ما يخرجكم عن فطرتكم ويفسد عقولكم ، ويحدث العداوة بينكم ، ويشيع المظالم فيكم ، فيفرق جمعكم ، ويقطع أرحامكم ، وما أروع الخطاب بعنوان الربوبية ! ففيه إحياء الشعور بالضعف أمام القوة ، وبالذلة أمام العزة ، وبالحاجة أمام الغنى ، وفيه إحياء الشعور بمحبة الله لهم ، وعطفه عليهم ورحمته بهم ، وفيه إحياء الشعور بقوة الرجاء في التقبل واستجابة الدعاء ؛ وقد كان عنوان الربوبية من قديم شعار الأنبياء والمؤمنين في دعائهم لربهم ودعوتهم لأممهم .

فإبراهيم يقول : « ربنا تقبل منا »[1] ، « ربنا واجعلنا مسلمين لك »[2] ، « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم »[3] ؛ وعيسى يقول : « وإن الله ربي وربكم فاعبدوه »[4] ؛ وموسى يقول : « رب

(١) سورة البقرة ١٢٧ .
(٢) سورة البقرة ١٢٨ .
(٣) سورة البقرة ١٢٩ .
(٤) سورة مريم ٣٦ .

اشرح لي صدري * ويسر لي أمري »[1] ؛ وشعيب يقول : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق »[2] وفي إرشاد المؤمنين إلى دعاء الله : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا »[3] ، « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »[4] ، « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار »[5] .

وهكذا كان عنوان الربوبية على لسان الأنبياء والمرسلين وهكذا أحست الفطرة النقية التي لم تدنسها الأهواء والشهوات بروعته ودلالته القوية على معاني الرحمة والعطف والإمداد وهكذا اتخذ وسيلة في استمطار الرحمة وتفريج الكرب وتليين القلوب النافرة المعرضة .

وهكذا يجب أن يكون عنوان الربوبية ونحوه أسلوب الوعظ الذي يرجى نفعه ، وبه أمر الله نبيه أن يقول : « تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » . وتلاوة ما حرم الله تجيء على وجهين :

أحدهما – أن يذكر المحرم نفسه مقترناً بأداة النهي والتحذير ، وذلك حينما يكون الضرر مترتباً على فعله ، ومنه

(١) سورة طه ٢٥–٢٦ .
(٢) سورة الأعراف ٨٩ .
(٣) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٤) سورة البقرة ٢٠١ .
(٥) سورة آل عمران ١٩٣ .

في آياتنا هذه – الشرك بالله وقتل النفس والأولاد وقربـان الفواحش ومال اليتيم .

والآخر – أن يذكر المحرم بذكر مقابله الذي يترتب الخير على فعله ، ومنه في آياتنا – الإحسان إلى الوالدين وإيفاء الكيل والميزان ، والعدل في الأقوال ، والوفاء بالعهود .

وقد جاءت كل وصية من هذه الوصايا في هذه الآيات بالأسلوب الذي يدل على مناط الخير فيها ، فمناط الخير في الأول ترك المحرمات ، فذكرت منهيا عنها ، ومناط الخير في الآخر فعل ما يقابلها ، فذكرت مأموراً بها ؛ وهكذا يكون الأسلوب الحكيم الذي يتحسس موضع الحاجة ومنشأ الخير في التكاليف . ولعلنا بهذا البيان نستريح من عناء التخريج الصناعي الذي شغل الناس عن روح القرآن وهدايته .

الوَصيّة الاولى

ألاّ تشركوا بهِ شَيئًا

استقبل المسلمون الليلة التي تواضعوا على أن يذكروا فيها ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتفلوا أفراداً وجماعات بهذه الذكرى الطيبة ، وقد تعددت ألوان احتفالاتهم بتعدد الإيحاءات التي تبعثها هذه الذكرى في النفوس :

فنهم من احتفل بتلاوة قصص وضعها الهائمون بخوارق العادات وإرهاصات المعجزات « وجعلوها إطاراً خاصا ولد في محيطه اليتيم الفقير ، وربما اتخذوا منها تمثيلية أو تمثيليات » .

ومنهم من احتفل بذكر سيرته في قومه وتعبده في كهفه قبل مبعثه ، « وجعلوها إطاراً خاصا تقلب فيه وهو غلام يرعى الغنم ، ومفكر يتحنث وهو تاجر أمين ، يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه رب المال » .

ومنهم من احتفل بذكر سيرته في الدعوة : أسر ، ثم جهر ، ثم لحقه الأذى والتنكيل ، ثم هاجر ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، ثم غزا ، ثم جاءه نصر الله والفتح ، وبه استقرت

كلمة التوحيد في ربوع الجزيرة ، وطهرت من الشرك والوثنية ، وعبادة ما لا ينفع ولا يضر .

ثم امتد نورها بجهود خلفائه الراشدين وأصحابه المخلصين حتى انتظم ما بين المشرق والمغرب ، وصار الحكم لله ، والتشريع لله ، والعمل لله .

بهذه الألوان المختلفة ، وفي هذا المدى – يحتفل المسلمون بذكرى ميلاد الرسول محمد عليه السلام أسبوعاً أو أسبوعين من شهر ربيع الأول من كل عام هجري ، فإذا ما انطوت صفحة ربيع الأول وخلفه الآخر وما بعده – انطوت صحف هذه الذكرى ، وانطوى معها الكلام في سيرته وتعاليمه ، وعاد الناس إلى مسالكهم في الحياة المادية ، لا يلوون فيها على شيء من روحانية محمد ، ولا من تعاليم محمد ، ولا من وصاياه التي تضمنها وحي الله الخالد إليه ، والتي اتخذها محمد بأمر من ربه أسس الحياة الطيبة ، تصل ما بين الناس وخالقهم ، وتصل ما بين الناس والناس ، وتجعلهم وحدة ذات عزة وكرامة ، وذات مجد وسلطان .

وما كان أغنانا عن هذا التلون في الحياة ، وعن هذا التقلب بين الحب القولي في بضعة أيام ، والعزوف الدائم المستمر في سائر الأيام ! ما كان أغنانا عن هذا الموقف المحسوب علينا

لا لنا لو أنا تتبعنا في حياتنا كلها مبادئه الإصلاحية ، وتعاليمه الإلهية ، وركزنا عليها علاقتنا بخالقنا وعلاقات بعضنا ببعض ، وحافظنا بها على وحدتنا محافظة عملية أساسها البر والإحسان ، والتعاون والتآخي ، وتطهير العقول من الأوهام والخيالات ، والقلوب من الشرك والوثنية ، والنفوس من الأخلاق التي عصفت بمجتمعنا وفككت عرانا وجعلتنا هدفاً للطامعين ، وأكلة للمفترسين ! ما كان أغنانا عن هذا الموقف لو قلنا لقومنا دائماً ما أمر الله رسوله أن يقوله لقومه ، ثم خلده في كتابه ؛ ليكون منهجنا في التوجيه والإرشاد . وليكون سبيلنا العملي الدائم فى الاحتفاظ بذكراه الدائمة الخالدة التي يحبها ويرضاها : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله »[1] .

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا بـه شيئاً »[2] .

وتلك هي الوصية الأولى من الوصايا العشر التي نحن بصدد تفسيرها . والتي نتخذ من مواصلة السير في بيانها ، ودعوة الناس إليها ، والتنبيه إلى خطرها – سبيلنا الدائم في ذكرى محمد الدائمة الخالدة . ألا وإن الإشراك بالله لم يكن ظاهرة

(١) سورة آل عمران ٣١ .

(٢) سورة الأنعام من ١٥١ .

انحراف ، وآية شذوذ خاصة بزمن محمد ، ولا بقوم محمد ، ولا بعبادة الأحجار والأصنام ، ولا بعبادة الشمس والقمر ، وإنما هو ظاهرة تسري جذورها ، وتمتد عروقها ومنابتها — في جوف الإنسانيـة الفاسدة اللاهيـة مـا دامت تخطر على جسر هذه الحياة إلى أن تقع في دائرة الحياة الأخرى . إن أشد أنواع الشرك بالله هو الشرك الذي يخرج الإنسانية من مكانتها . وينزل بها كأنما خرت من السماء ، فتخطفتها الطير . أو هوت بها الريح إلى مكان سحيق . هو شرك الهوى والغي . شرك الذاتية والانحلالية . شرك الوهم والخيال . شرك الضغط ينزل بالضعيف من القوي وبالفقير من الغني . شرك الاستكانة والذلة والمهانة : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة »[1] .

أليس كل ما ذكرت شركاً ؟ أليس كل شرك مما ذكرت قد أخذ طريقه إلى واحد منا ، أو إلى طائفة من طوائفنا ؟ دعني من كلمة « الإيمان بالله » ؛ فنحن قد نكون حقا مصدقين بوجود الله ، ولكن الإيمان لا يعني مجرد التصديق بوجوده واعتقاد أنه الخالق للكون ؛ فقد كان القوم إذا سئلوا : من خلق السموات والأرض ؟ قالوا : خلقهن العزيز العليم .

---

(١) سورة الجاثية ٢٣ .

وإنما يعني الإيمان بالله امتلاء النفس بسلطانه الغيبي ، وأنه الموجه ، وأنه الحاكم وأنه المدبر ، وأنه صاحب الأمر الذي يطاع ، والمنهج الذي يتبع : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له »[1] .

أو ليس يسجل الله على هؤلاء – مع اعتقادهم أنه الخالق – أنهم مشركون ، فيقول : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ؟ »[2] وإذا كان الإيمان يطمس نوره ما اتصل به من شرك الهوى ، وكان به أصحابه في حكم الله مشركين ، وكان أول المحرمات في وصايا الله – فيا ويل المؤمنين بالله وقد فشا فيهم الشرك بالله ، واتخذوا له ألواناً وألواناً : الرياء في عبادة الله شرك بالله ، الإعراض عن شرع الله شرك بالله ، التفريق بين جماعة الموحدين لله شرك بالله ، موالاة الأعداء الساعين في أرض الله بالفساد شرك بالله ، الضن بنعم الله على عباد الله شرك بالله ، الاعتماد على شفاعة الشفعاء في مغفرة الذنوب دون عمل ولا رجوع إلى الله وحده شرك بالله ، الخنوع للجبارين الطغاة والرضا بإذلالهم وإهمال أوامر الله في مكافحتهم ورد طغيانهم شرك بالله .

---

(١) سورة الأنعام ١٦٢–١٦٣ .

(٢) سورة يوسف ١٠٦ .

أو ليس كثير منا إذن مشركين : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون »[1] دعني من هذه الألوان الشركية التي حجبت عنا أنوار الحياة الشريفة ، فتفرقت بنا السبل ، وقذفت بنا إلى سوء المصير ، دعني من هذا ، وتعال معي لنقرأ في وسائل التوجيه لأبنائنا وقومنا هذه الدعوة الإلحادية السافرة التي تنادي جهاراً نهاراً في أنهار المجلات والصحف وفي بلد مضى تاريخه ، وقامت عزته ، ووضعت نظمه ، ونمت حياته ، وبني دستور نهضته على أساس من الإيمان بالله خالق الأرض والسموات : تنادي جهاراً نهاراً — أنه لا خالق لهذا الكون ! وأنه لا حقيقة للشيء الذي اخترعه الوهم ، وخوف به الناس بعضهم بعضاً ، وسموه (الله) ! وما موقف الناس منه وتأثرهم به إلا كموقف (الكلب المتدين) حينما أزعجته ورقة معلقة في الهواء اعتقد أن بها حياة ، وأن بها قدرة على إساءته ؛ فارتاع لها وخافها وفر هارباً من أمامها ! هكذا نقرأ في وسائل التوجيه لأبنائنا وقومنا عن عقيدة الله الخالق ! سبحانك ربي ! إنها لفتنة ، وفتنة غائرة لم يعرفها عباد الأحجار والأصنام في جاهليتهم ، ولكن عرفتها بعض مجلات مصر والمغرورون المنحرفون ، واتخذت سبيلها إلى

---

(١) سورة يس ٣٠ .

قلوب الأحداث والمفتونين من أبناء مصر بعد أن سلخت مصر من حياتها في التوحيد أربعة عشر قرناً إلا قليلاً : فالبدار البدار يا قادة مصر ، أنتم تبنون ، فحافظوا على بنيانكم وصونوا جماله ، البدار البدار يا قادة مصر ، ويا حماة التوحيد والإيمان : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب »[1] .

---

(١) سورة الأنفال ٢٥ .

الوَصيّة الثانيَة

وَبالوَالدين إحسَانًا

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً »[1] .

أيها السادة ، تكلمنا فيما سبق عن الوصية الأولى من الوصايا العشر التي اشتملت عليها الآيات الثلاث الواردة في أواخر سورة الأنعام ، وهي الوصية المتصلة بالله سبحانه وهي المذكورة في الآيات بقوله تعالى : « ألا تشركوا به شيئاً » ؛ وبينا أنها أصل الفضائل ، ومبعث الخير العام ؛ وهذه هي الوصية الثانية – الإحسان بالوالدين – وهي المذكورة في الآيات بقوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً » ومعناه : وأحسنوا بالوالدين إحساناً : طلب فيها العمل الإيجابي ، وهو أن يفعل مع الوالدين ما يشرح صدريهما ، ويدفع حاجتهما ولم يكتف فيها بالنهي عن الإساءة إليهما سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين . والقرآن يوحي بهذا التعبير : « وبالوالدين إحساناً » دون – ولا تسيئوا إلى الوالدين – إلى أن إساءة

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

والهيمنة والحفظ – فالوالدان هما المتفضلان بعد الله بما جعل الله فيهما من قوى التوالد ، وعاطفة الحب والتضحية بالراحة والجهود في سبيل تربية الولد وتنميته وصيرورته رجلاً عاملاً في الحياة ؛ وبذلك كانت مرتبة الوالدين بعد مرتبة الله في الذكر والإرشاد ، وكان في ذلك رفع وسمو بمكانة الأبوة إلى هذا الجوار السامي الذي جعل الله فيه الوالدين ونبه به على واجب الأبناء بالنسبةِ إلى الآباء . وقد جاءت هذه الوصية مرات متكررة ، وعلى سبيل الاستقلال في آيات أخرى من القرآن الكريم ، ولكنها لم تأت بعنوان الأمر والطلب ، وإنما جاءت بعنوان الايصاء ، والإيصاء هو أن يعهد إلى الغير بعمل يهتم له الموصي ويعنى به ، ويغار عليه ، ويكون للموصي فيه حظ ومنفعة ؛ وبذلك كان أسلوب الوصية أشد حفزاً إلى الامتثال ، وأقوى ما يدفع الإنسان إلى القيام بالمطلوب : « يوصيكم الله في أولادكم »[1] ، « وأوصاني بالصلاة »[2] ، « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب »[3] ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم

(١) سورة النساء ١١ .
(٢) سورة مريم ٣١ .
(٣) سورة البقرة ١٣٢ .

الوالدين ليس من شأنها أن تقع من الإنسان حتى يحتاج إلى النهي عنها ؛ ويوحي من جهة أخرى إلى أن الخير المنتظر من هذه الوصية – وهو احترام الأبوة والقيام بمطالبها – إنما يترتب على الإحسان ، لا على مجرد ترك الإساءة ؛ لهذا وذاك – وكان أسلوب الوصية الأولى : « ألا تشركوا به شيئاً » وكان أسلوب هذه الوصية : « وبالوالدين إحساناً » .

والوصية بالوالدين جاءت في كثير من السور : جاءت في سورة البقرة : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً »[1] . وفي سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً »[2] وفي سورة الإسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً »[3] .

وقد جعلت هذه الوصية في هذه السور الثلاث ، وفي سورة الأنعام التي نحن بصدد تفسير آياتها – تالية في الذكر والوضع القرآني للأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن الإشراك به . وإذا كان الله هو المتفضل الأول بنعمة الوجود والتربية

---

(١) آية ٨٣ .

(٢) آية ٣٦ .

(٣) آية ٢٣ .

وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[1] ، « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ان اتقوا الله »[2] .
وبهذا الأسلوب جاءت الآيات المتصلة بالوالدين : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما »[3] . « ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين ، أن اشكر لي ولوالديك »[4] . « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً »[5] . وإذ أن متاعب الأم ، ومظاهر عنايتها بالأبناء كانت في دور الحمل والإرضاع وما يتبعه من أطوار الصغر وضعف الإدراك وربما لا يذكرها الأبناء بعد الكبر – عنيت هذه الآيات ببيان فضل الأم في المراحل الأولى من حياتهم ، وخلد لها ذلك الفضل في الكتاب الخالد ؛ ليكون الموقظ الدائم للأبناء المنبه لهم على ما لها من فضل .

وقد دلت آية الإسراء على أن الإحسان إلى الوالدين يجب أن يكون باعثه الرحمة والإجلال لا الطمع في مالهما أو

(١) سورة الشورى ١٣ .
(٢) سورة النساء ١٣١ .
(٣) سورة العنكبوت ٨ .
(٤) سورة لقمان ١٤ .
(٥) سورة الأحقاف ١٥ .

الاحتيال على وقوعهما في يده ، يتصرف بهما وفي مالهما كما يشاء : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً »[1] ، كما ترشد إلى أن الإحسان لا يكون واقعاً موقعه إذا كان ناشئاً عن قهر الوالدين وإخضاعهما الأبناء لما يريدان بغلظة أو قسوة ، وأن هذا لا يكون خفضاً لجناح الذل من الرحمة ، وإنما هو خفض لجناح الذل من القهر والغلبة .

هذا واجب الأبناء للآباء ، والذي نلحظه أن القرآن لم يذكر حق الأبناء على الآباء ، ولم يعن بإبرازه على وجه خاص كما أبرز حق الآباء على الأبناء ، ولعل ذلك يرجع إلى ما طبعت عليه نفوس الآباء من شدة الحرص على منفعة الأبناء والقيام بواجبهم والإحسان اليهم ، فهم ليسوا في حاجة إلى تكليفهم ما هم عليه مطبوعون ، وليس معناه أنه لا واجب عليهم للأبناء حتى يتخذوا من تخصيص الأبناء بالإرشاد إلى الإحسان اليهم سبيلاً إلى سوء معاملة الأبناء ، كما رأينا وسمعنا عن كثير منهم ممن يجورون على أبنائهم ، بل يطردونهم ، ويؤثرون بعضهم على بعض ، ويتحكمون في حياتهم الزوجية على كره منهم ، وكل ذلك انحراف من الآباء بالنسبة للأبناء.

---

(١) سورة الإسراء ٢٤ .

وليس صحيحاً ما يقال من أن الآباء لهم كامل التصرف كما يريدون مع الأبناء ، فهم الملاك وأصحاب الشأن في العطاء والحرمان ، وفي الزيادة والنقصان ! فإن عناية القرآن بحق الوالدين ليست بالنظر إلى شخصهما فقط ، بل بالنظر أيضاً إلى أنهما عمادا الأسرة ؛ وأن الأسرة لا بد لها من التكون الصحيح الذي يستظل فيه أفرادها بنسيج المحبة والتعاون ، وبلواء العزة والسعادة ، وإذن فكل ما يفرق الأبناء ويوقع العداوة بينهم يسأل عنه الآباء ويحاسبون عليه ، وكل ما يذلهم ويضعف شخصيتهم ، ويجعلهم مطبوعين على القهر والإذلال يسأل عنه الآباء ويحاسبون عليه ، ولا خير في أمة تتكون أسرها من أبناء لم يروا من آبائهم ما يقوي بينهم الروابط ، وما يرفعهم إلى مكانة الشخصيات العزيزة التي تعرف لنفسها معاني العزة والكرامة . وأرجو أن يكون لهذا الإرشاد أثره النافع عند الآباء والأبناء ، فيقوم كل بواجبه ، وبذلك تسلم الأسرة من الانحلال والتفرق ، وتتكون الأمة من أسر قوية ناجحة نافعة .

الوَصيّة الثّالثة

وَلا تقتُلوا أولادكُم

تكلمنا فيما سلف عن الوصيتين الأوليين من الوصايا العشر التي اشتملت عليها الآيات الثلاث الواردة في أواخر سورة الأنعام ، « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم »[١] . وكانت الوصية الأولى الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن اتخاذ غيره شريكاً : يعبد ويسأل ويستعان ، ويتلقى عنه التحليل والتحريم ، وهي الوصية المذكورة بقوله تعالى : « ألا تشركوا به شيئاً »[٢] وكانت الوصية الثانية – الأمر بالإحسان إلى الوالدين إحساناً كاملاً ، لا شائبة فيه لإساءة : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً »[٣] . وهي الوصية المذكورة بقوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً »[٤] .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة الأنعام ١٥١ .

(٣) سورة الإسراء ٢٣–٢٤

(٤) سورة الأنعام ١٥١ .

أما الوصية الثالثة – وهي موضوع الحديث اليوم – فهي النهي عن قتل الأولاد ، وهي المذكورة في قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » [1] وقد جاءت هذه الوصية مرة أخرى في وصايا سورة الإسراء التي سيقت فيها بعنوان : « القضاء والحكم » : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » [2] ... « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً » [3] .

وقد جاء في سورة الأنعام نفسها نعي شديد على هذا الصنيع الإجرامي من جهتين : من جهة أنه لم يكن إلا أثراً لضعف النفس ، وتأثرها بتزيين الشياطين ووسوستهم بأنه عمل صالح ، يتقي به الإنسان غائلة الفقر التي يجلبها الإنفاق على الأولاد ، ويتقي به عار الفاحشة أو السبي في القتال ، ويتقي به عار التزوج بزوج هو دون الآباء في الشرف والمكانة ، واقرأ في هذا التبكيت : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » [4] .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة الإسراء ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء ٣١ .

(٤) سورة الأنعام ١٣٧ .

وكذلك جاء فيها النعي عليهم من جهة أنه خسران لهم عظيم ، خسران لهم وأي خسران ، يخسرون به عاطفة الأبوة الفاضلة عاطفة الرحمة والشفقة ، يخسرون به كثيراً من النعم التي يحصل عليها الإنسان في حياته من جهة النسل والولد ؛ فبالولد العزة والنصر لوالديه وللأمة ، وبالولد امتداد الحياة والأثر ، وبه السرور والزينة ، وبه المعونة في الحياة ، ومنه البر والصلة . كل ذلك يخسره قاتل أولاده بطيشه وحمقه وجهالته وسوء تقديره : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين »[1] .

هذا ولا يزال بعض الناس إلى اليوم تتملكهم الشياطين ، فتسول لهم قتل أولادهم : يخنقونهم أو يغرقونهم بحجة الفقر القائم أو خوف من نزوله المترقب ، فيصيبهم الخسران المعنوي ، وتفسد لديهم عاطفة الأبوة الشريفة ، ويلتحقون بالحيوانات العجم ، ويصيبهم الخسران الحسي ، فيفقدون في حياتهم المولى والنصير ، ويحرمون سرور الحياة وزينتها ، ويفقدون في مماتهم الذكر الطيب ، والأثر الحسن الذي يتمثل في الأبناء والأحفاد للآباء والأجداد . والنهي كما جاء في الآيات

---

(١) سورة الأنعام ١٤٠ .

يشمل قتل الأولاد بعد ولادتهم واستقبال حياتهم ، وقتلهم وهم أجنة في بطون الأمهات ، كما ينزع اليه في هذه الأيام كثير من الناس الذين لا يقصدون من الزواج سوى المتعة الجنسية ومجرد الشهوة الحيوانية ، غير مقدرين لحق الأمة ولحق إنسانيتهم ، ولحق أولادهم في الحياة والتمتع ، ولحق ربهم في عمارة الكون ونظامه .

وقتل الجنين بالإسقاط والإجهاض ، كقتل المولود — كلاهما جناية على موجود منح الحياة : أما المولود فأمره ظاهر واضح ، وأما الجنين ، فقد غرست فيه الحياة بمجرد التلقيح ؛ والإسقاط في تلك الحالة جناية تفسد ما هيأه الله للوجود وبث فيه عنصر الحياة . وتعظم الجناية كلما نما الجنين ، وكلما انتقلت المادة من طور إلى طور حتى تصل إلى منتهاها ، وتنفصل عن الأم ، وتصير إنساناً كامل الوجود والحياة ، للجناية عليه حكم الجناية على سائر الناس ، ولم يغب عن فقهائنا المحققين أن مادة التلقيح فيها حياة ، وأنها حياة محترمة ؛ ورتبوا عليها أحكاماً حتى في غير الإنسان . أما الحياة التي لا تكون إلا في الشهر الرابع من مدة الحمل فهي حياة الحس والحركة التي عبر عنها القرآن بالخلق الآخر ، وعبر عنها الحديث بنفخ الروح ؛ وإذن فلا صحة لما يقال من إباحة

الإجهاض في الأشهر الأولى ، أي قبل نفخ الروح ، فانه لا فرق في أصل النهي والحرمة بين قتل المولود الذي انفصل عن أمه بالتمام ، وقتل الجنين الذي نفخت فيه الروح وصار ذا حس وحركة في بطنها ، وقتل الجنين وفيه حياة النمو قبل الحس والحركة . وإذا كان بينهما فرق فهو في تكامل الجريمة وعدم تكاملها : فقتل المولود جناية على نفس كملت حياتها واستقلت ، وقتل الجنين بعد حياة الحس والحركة جناية على نفس كملت حياتها وإن لم تستقل بالحياة عن غيرها ، وقتل الجنين قبل حياة الحس والحركة جناية على منح عنصر الحياة ثم سلبه بالجناية عليه ؛ وإذن فلا يصح لمؤمن يؤمن بالله وبنعمة الحياة أن ينقض بوحشية على ذي الحياة فيسلبه حياته ؛ وإنها لجريمة وإثم كبير . فليتق الله هؤلاء المترفون الذين فسدت طباعهم ، فقتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ؛ وليتق الله أرباب هذه الأجهزة التي اصطنعوها للإجهاض تلبية للرغبات الفاسدة ابتغاء دراهم معدودة ، يأكلونها في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ، وسيحملون وزرها يوم تسأل الموءودة : « بأي ذنب قتلت ؟ »[1] . « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ،

---

(١) سورة التكوير ٩ .

الوَصيّـة الرابعَـة

وَلا تقـربُوا الفوَاحِش

تكلمنا عن وصايا ثلاث من الوصايا العشر التي اشتملت عليها الآيات الثلاث الواردة في أواخر سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : « قل تعالوا ، أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »[1] وهذه هي الوصية الرابعة المذكورة بقوله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[2] والفواحش اسم لكل ما عظم قبحه ، واستقرت بشاعته في نظر العقول والفطر السليمة ، ومن شأنها أن الشرائع الإلهية تنكرها وتمقتها وتحذر الناس إياها صيانة للأفراد . وحفظاً للمجتمعات من آثارها السيئة التي تفسد على الإنسان عقله وخلقه ، وتودي بحياته الفاضلة ، وتصرفه عن طريق الكمال الإنساني الذي كرم به في هذه الحياة .

وكثيراً ما يرد القرآن تحريم الأشياء وتحليلها إلى ما يكون

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة الأنعام ١٥١ .

يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ »[1] .

أما أنتم أيها الخائفون الفقر فقد طمأنكم الله وهو الرزاق ذو القوة المتين على الرزق بما جعل فيكم من قوى العمل والكسب ، بما هيأ لكم من تنوع الأعمال التي لا يفقد إنسان مع كثرتها ما به قوته وقوت ولده . وإذا كان أولادكم اليوم صغاراً فالله يرزقهم برزقكم وكسبكم ، وإذا كانوا كباراً فالله يرزقكم برزقهم وكسبهم ؛ فأنتم وأولادكم في تبادل النفع والقيام بواجب الحياة سواء : فكما لا تقبلون أن يقتلكم أبناؤكم وأنتم كبار ضعاف عن الكسب والعمل لا يليق بكم ولا يصح أن تقتلوا أولادكم وهم صغار ضعاف عن الكسب والعمل :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »[2] ، « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً »[3] .

---

(١) سورة المطففين ٤-٦ .

(٢) سورة الأنعام ١٥١ .

(٣) سورة الإسراء ٣١ .

لها من آثار سيئة أو آثار حسنة ؛ فهو يقول : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »[1] ، « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر »[2] . ويقول في تحريم الخنزير : « فإنه رجس »[3] وفي تحريم الخمر والميسر : « رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة »[4] ويقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول »[5] . وهكذا لا نكاد نرى تحريماً لشيء إلا وقد ربطه الله بما فيه من خبث وفحش وسوء وأذى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض »[6] .

ومن هنا كان الفحش والضرر أصلاً يتحاكم اليه في حل أو حرمة ما لم ينص الشارع على حله أو حرمته مما لم يكن في زمن التشريع ؛ وإذن فمتى عرفت للشيء آثار ضارة ، أو

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٣) سورة الأنعام ١٤٥ .

(٤) سورة المائدة ٩٠–٩١

(٥) سورة النساء ١٤٨ .

(٦) سورة البقرة ٢٢٢ .

عرف أن ضرره أكثر من نفعه – وجب بحكم هذا الأصل التشريعي تحريمه ، وكان تحريمه هو حكمه عند الله وإن لم يرد نص خاص بتحريمه. ومتى لم يعرف للشيء أثر من الآثار الضارة كان حكمه بمقتضى هذا الأصل – هو الحل وإن لم يرد نص خاص بتحليله ، وكان الحل هو حكمه عند الله ، وهذا هو ميزان الحل والحرمة بينه الله للناس وأرشدهم إلى تحكيمه في كل ما يجد لهم ويحدث من شئون ، وهو سر من أسرار دوام الشريعة وعموم سلطانها . وليس سلطانها كما يظن بعض الجهلة – مقصوراً على ما ظهر في الوجود وتناولته نصوصها بالتحليل أو التحريم ، فالله حرم الفواحش كلها من أفعال وأقوال ظاهرة وباطنة حتى المعاني النفسية التي تكنها الصدور ويكون لها من الآثار في أصحابها أو في غيرهم أفراداً أو جماعات ما يضعف حياتهم وينزل بكرامتهم ، ويفسد مجتمعهم .

وإذا كان الاعتداء على الأعراض بأية صورة من صوره قد أطلق القرآن عليه عنوان الفاحشة وبها كان محرماً أشد التحريم ، فما ذاك إلا لشدة قبحه ونهاية خبثه . والسعي بين الناس بالإفساد وتدبير المكايد وإشاعة الأخبار الضارة المزلزلة لأمن الجماعة وكيانها – من أوضح أنواع الفواحش التي يتناولها قوله تعالى :

« ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » [1] وكثيراً ما أطلق القرآن كلمات – فاحشة وفحشاء على كل خبيث ذي أثر سيئ : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » [2] . « إن الله لا يأمر بالفحشاء » [3] ، « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » [4] ، « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » [5] وإذن : فالكلمات ليست خاصة بالاعتداء على الأعراض وإنما هي عامة في كل ما يضر ويؤذي . وقد كان لفاحشة الاعتداء على العرض في الجاهلية شيوع ونظام ، فكان وجهاء القوم ورءوسهم لا يقارفونه إلا سرا ونادراً ، ولا يألفه ويسعى اليه جهاراً نهاراً إلا أراذلهم وأدنياؤهم ، أعدوا له بيوتاً علنية ، تعرف بالمواخير ، ووضعوا عليها أعلاماً تميزها من بيوت الشرفاء الحرائر . هكذا كان موقفهم بالنسبة إلى تلك الفاحشة التي تجعل أفراد الإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه أشبه بالحيوانات . لا تعرف مكانة للشرف ولا قيمة للعرض .

(١) سورة الأنعام ١٥١ .
(٢) سورة العنكبوت ٤٥ .
(٣) سورة الأعراف ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف ٣٣ .
(٥) سورة الأحزاب ٣٠ .

جاء الإسلام ، فاتخذ كل ما يمكن أن يتخذ في منع هذه الفاحشة أو تقليلها ، فضلاً عن إظهارها واتخاذ البيوت والرخص لها : حرم على الرجل خلوته بالأجنبية . وحرم على المرأة انفرادها في السفر بغير محرم ، وحرم عليها التبرج بالزينة في الذهاب والإياب وتقلبها في الطرقات والمجتمعات بما يغري بها مرضى القلوب ، ويكون سبيلاً لارتكاب الفحش والفجور ؛ وأمر الرجل والمرأة كليهما بغض البصر والاستئذان في دخول البيوت ، ومنع الميوعة في الخطاب ، والتلوي في المشية ، وغير ذلك من الوسائل التي من شأنها أن تباعد بين الناس وانتشار هذه الفحشاء . وقد كان من حظ مصر ولطف الله بها بعد أن ابتلاها على أيدي المحتلين المستعمرين بإعادة مواخير الجاهلية وترخيص الحكومات المسخرة لتنفيذ خطة المستعمر في إفساد الأخلاق – كان من لطف الله بها – أن هيأ لها إزالة هذه الوصمة التي سودت وجه مصر الإسلامية في ظل الاستعمار الغاشم حيناً من الزمن .

والآن وقد صارت مصر إلى عهد وسلطان حكومة أعز شيء عندها فيما نعتقد – تقديس دينها وشرفها وشخصيتها – لا نتردد في أن هذه الأقلام الطائشة التي تنفث سمومها من حين إلى آخر في الدعوة الفاسقة إلى إعادة تلك الوصمة –

دخيلة على مصر الإسلامية وأنها من بذور الإفساد التي تركها المستعمر تعمل من بعده على تحقيق أهدافه السيئة في البلاد باسم حرية الرأي ، وباسم حماية البيوت من تفشي هذا الوباء ! ولا نتردد مرة أخرى في أن الحكومة الشعبية الإسلامية تدرك نوايا هؤلاء المأجورين ، وأنها ستحطم أقلامهم وترد عليهم كيدهم في نحورهم ، وتلحق ذنب الأفعى برأسها ، وتخلص كرامة البلاد وشرفها ودينها واستقلالها من عبث المفسدين الذين تنطلق أبواقهم بالمغريات ، وتنتشر مجلاتهم بالصور العارية والسموم الفاتكة والأفكار التحللية : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[1] والسلام على من اتبع الهدى .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

الوَصيّة الخامِسَة

ولا تقتلوا النَفس التي حَرّم الله

تكلمنا عن الوصايا الأربع الأولى من الوصايا العشر التي تضمنتها الآيات الثلاث الواردة في أواخر سورة الأنعام ، وهي الوصايا المذكورة بقوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[1] وهذه هي الوصية الخامسة المذكورة في الآية الأولى من الآيات الثلاث بقوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق »[2] وقد اتفقت جميع الملل والنحل منذ بدء الخليقة وقر في نفس الإنسان منذ أن وجد معه أخوه الإنسان أن قتل النفس عمداً بغير حق يبرره — جريمة منكرة واعتداء صارخ لا يقره مشرع ولا يتقبله وضع ولا يستسيغه إجماع . وقد عنيت الشريعة الإسلامية بهذه الجريمة أيما عناية ، وأولتها كثيراً من الاهتمام ، فكررت النهي عنها ، وشددت التنفير

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة الأنعام ١٥١ .

منها والنكير عليها ، وبينت بوجه خاص جزاءها الأخروي ، وأفاضت فيه ، وفي حكمها الدنيوي ، وفصلت أهم نواحيه . وجعلت لها بعد عقوبتها الدنيوية الأصلية وهي (القصاص) عقوبة أخرى تبعية ، وهي حرمان القاتل من إرث المقتول إذا كان بينهما سبب من أسباب الميراث . وإنها لجديرة بكل هذا ، فهي – ولا شك – سلب لحياة المجني عليه وتيتيم لأطفاله وترميل لنسائه وحرمان أهله وذويه منه ، وهي في الوقت نفسه تحد لشعور الجماعة الإنسانية الذي فطرت عليه من اعتقاد أن الحياة حق لكل حي يتمتع به ، وأنها منحة لا يجوز لأحد غير مانحها أن ينتزعها منه ؛ وهي فوق ذلك زعزعة لما ترجو هذه الجماعة من هدوء الحياة واستقرارها ، وهدم لعمارة شادها الله تتكون منها ومن أمثالها العمارة الكبرى التي قدرها الله لهذه الحياة . ومن أصرح وأقوى ما جاء في حكمها الأخروي قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً »[1] . وعيد تنخلع له القلوب على جريمة القتل ، جاء هكذا من عند الله مطلقاً غير مقيد بتوبة كما هو الشأن في سائر الجرائم حتى جريمة الكفر ، وقد كان هذا الإطلاق سبيلاً لبعض العلماء

(١) سورة النساء ٩٣ .

في الصدر الأول إلى تقرير أن توبة من يقتل المؤمن غير مقبولة ، وسواء علينا أصح هذا الرأي أم لم يصح فحسبنا في عظم الجريمة أن الوعيد عليها جمع أموراً أربعة ، هي أقوى ما يصور غضب الله وسخطه على مرتكبها : غضب من الله ، ولعنة منه ، وخلود في جهنم ، وإعداد للعذاب العظيم . وهو تصوير لم ير مثله في جريمة غيرها ، والنفس في الآية : « ولا تقتلوا النفس » قد ذكرت مطلقة فتعم المؤمنة وغير المؤمنة ؛ وإذن فالكفر وحده ليس مبيحاً لنفس الكافر ، وإنما الذي يبيحها شيء آخر من محاربة المسلمين والاعتداء عليهم ، وهذا هو الحق في تلك المسألة وكذلك تعم نفس القاتل ونفس غيره ، ولهذا فمن قتل نفسه كان عند الله كمن قتل غيره ، وقد أفصح عن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام تصويراً لجزاء من يقتل نفسه عند الله : (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً) .

وأحاديث الانتحار – وهو قتل الإنسان نفسه – كثيرة مروية في صحاح الأحاديث ، وبها يتبين أن النفس في الآية

تشمل نفس القاتل ونفس غيره ، فكلتيهما نفس حرمها الله على صاحبها وعلى غيره .

ومعنى تحريم الله للنفس أنه حرم قتلها ، وأن هذا التحريم لم يكن خاصاً بالإسلام ، وإنما هو بمقتضى الخلقة والتكوين ، وقد نزلت به الشرائع السابقة ، وقررته على ألسنة جميع الرسل ، فهي من أحكام الله التي لم تتغير بتغير الرسالات ، ومثلها في ذلك مثل الشرك بالله والبغي والاعتداء على العرض مما جاءت به الشرائع كلها . وقد أرشد قوله تعالى : « إلا بالحق » إلى أن هذه الحرمة التي قررها الله للنفس البشرية من قديم إنما هي بالنظر إلى ذاتها وأصل خلقتها غير منظور فيها إلى ما يصدر عنها من أسباب ترفع عنها تلك الحرمة وتسوغ قتلها ، فإن صدر عنها على وجه متيقن لا شبهة فيه ما يبرر قتلها بنص مقطوع به انسلخت عنها حرمتها ، وكان قتلها في تلك الحال قتلاً بحق لا حرمة فيه ولا نهي عنه . وقد جاء من ذلك في القرآن حالان . حال القتل جزاء عن قتل ، وهي المذكورة في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى »[1] ، وقوله : « ولكم في القصاص حياة »[2] والحال الأخرى هي

(١) سورة البقرة ١٧٨ .

(٢) سورة البقرة ١٧٩ .

حال الاعتداء على النظام العام التي عبر الله عنها بمحاربة الله ورسوله والإفساد في الأرض ، وهي المذكورة في قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا »[1]. وهناك حالات أخرى وردت بها أحاديث تسلب النفس الإنسانة حرمتها وتبيح قتلها ، غير أنها لم تنل إجماع العلماء على هذا النحو الذي نالته حال الاعتداء على النفس أو حال الاعتداء على النظام العام ، ولم يكن طريق إباحة النفس في القوة والتيقن – مثل طريق ما يبيحها بقتل النفس والإفساد في الأرض . ومن تلك الحالات الزنا من الرجل المتزوج وترك الصلاة ومنع الزكاة وارتكاب الفاحشة مع الجنس والسحر الذي يفسد العلاقات بين الناس ويفرق بين المرء وزوجته . وقد نجد في كتب الفقه غير ذلك من الحالات التي اختلف العلماء في أنها تسلب النفس حريتها أو لا تسلب . ومن الواجب في هذا الموضوع التنبيه إلى أن حرمة النفس الإنسانية أصل متيقن جاءت به النصوص القطعية التي لا شبهة في ورودها ولا في دلالتها ، وإلى أن مثل هذه الحرمة المقطوع بها لا تسقط عن محلها إلا بسبب يتيقن صدوره عن ذلك المحل بطريق القصد والإرادة الكاملة ، ولا بد من أن

---

(١) سورة المائدة ٣٣ .

يكون ذلك السبب مقطوعاً بورود نصه ومقطوعاً بدلالة النص على أنه يسقط تلك الحرمة ، ولأجل هذا وجب أن يكون الحكم بإباحتها وتنفيذ الحكم عليها من خصائص الحاكم الذي من شأنه التحقيق في كل ذلك وليس للأفراد حق في شيء منه ، وإذن فالأسباب التي لا يتيقن صدورها من الشخص على وجه لا شبهة فيه لا تسقط حرمة نفسه ولا تبيح قتله . والأسباب التي جاءت بها النصوص غير قطعية هي كذلك لا تسقط حرمة النفس ، ولا تبيح قتلها وإن يذهب اليه من العلماء من يذهب ؛ ومن هنا تكون إباحة النفس المقطوع بها في الشريعة الإسلامية والتي يصح أن نقول إنها حكم الإسلام — مقصورة على الحالين اللتين وردت بهما النصوص القطعية ، بعد أن تكونا متيقنتي الوقوع على وجه لا شبهة فيه وبعد أن يكون الحاكم العام هو المحقق وهو المنفذ . وهما — كما قلنا — حال قتل النفس عمداً ، وحال الاعتداء على النظام العام .

الوَصيّة السَادِسَة

ولا تقربوا مَال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسَن

تكلمنا عن الوصايا الخمس التي تضمنتها الآية الأولى من الآيات الثلاث ، المشتملة على الوصايا العشر ، الواردة في أواخر سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »[1] . وهذه هي الوصية السادسة من الوصايا العشر ، وهي الوصية الأولى من وصايا الآية الثانية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده »[2] ، وهي كما نرى تتعلق بمال اليتيم ، ومعناها النهي عن قربان مال اليتيم بأي نوع أو حال من حالات القربان والاتصال ، سوى حال واحدة ، وهي الحال التي يكون الاتصال فيها بمال اليتيم أحسن ما ينفع اليتيم في الحال والمآل

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) سورة الأنعام ١٥٢ .

بالنسبة لنفسه كتربيته وتعليمه ، وبالنسبة لماله كحفظه واستثماره ، وإذن فكل تصرف مع اليتيم أو في ماله لا يقع في دائرة ما هو أحسن – محظور ومنهي عنه : فأكل ماله طمعاً فيه واستضعافاً له – محرم ومنهي عنه : وتجميد ماله وعدم استثماره بالزراعة أو الصناعة أو التجارة – محرم ومنهي عنه ، والإسراف فيه بما لا يكسبه خيراً فيه ولا يدفع عنه شرا – محرم ومنهي عنه ، وإهماله وعدم صيانته بتمكين الناس من نهبه والاستيلاء عليه – محرم ومنهي عنه .

وقد تعلق النهي في هذه الوصية بالقربان من مال اليتيم دون التصرف فيه ، لأن المال من الشئون التي تتعلق بها الشهوات وتميل اليها الرغبات بدوافع نفسية من الإنسان ، وكأنه قصد بذلك التحذير عن الميل اليه ومحاربة الشهوات فيه ، ومثلها في ذلك الوصية المتعلقة بالنهي عن الفواحش ، فإن الفواحش كذلك مما تميل اليه الشهوات وتدفع اليه الأهواء ؛ ولذلك جاء النهي فيها أيضاً متعلقاً بقربانها لا بفعلها « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[1] .

أما الوصايا الأخرى التي تعلق النهي فيها بالفعل نفسه ، كالشرك بالله والقتل فإنها – وإن كان فعلها أشد قبحاً وأعظم

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

جرماً من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش – ليس فعلها مما تميل اليه الشهوات وتدفع اليه الرغبات ، بل هو على الضد ، يجد الإنسان في نفسه مرارة من ارتكابه والإقدام عليه ، ولا يقدم عليه إلا وهو كاره أو في حكم الكاره ، ويحس في نفسه بعد ارتكابه ندماً بالغاً ، وأسفاً غير متدارك ، ولعل منشأ ذلك أن دلائل التوحيد ، وتقرر حق الإنسان في الحياة – مطبوعة في النفوس البشرية ، لا تشذ عن مقتضاها ، فتشرك أو تقتل إلا بمحاولة نفسية عنيفة في التفلت من حكم دلائل التوحيد ، وحكم احترام الحياة ، وانظر تعبير القرآن وتصويره لهذه المحاولة بالنسبة للشرك في قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق »[1] ؛ وبالنسبة للقتل قوله حكاية عما في نفس القاتل من ولدي آدم حينما قتل أخاه ، « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوءة أخي ؟ فأصبح من النادمين »[2] . وكان من آثار هذا الفرق بين بعض المحرمات

---

(١) سورة الحج ٣١ .

(٢) سورة المائدة ٣٠-٣١ .

وبعضها الآخر أن القرب من القتل مثلاً بالتفكير فيه والتصميم عليه لا يلزمه أن يصل بالإنسان إلى ارتكابه ؛ ذلك لعدم ميل النفس بطبعها اليه ؛ ولا كذلك القرب بالتفكير فيما تشتهيه النفس وتميل اليه ، كالمال والفواحش ؛ فإن الفعل يتبعه غالباً ، ولا يتخلف عنه إلا برادع صغير ، لا يتفق لكثير من الناس ، ولا في كثير من الأحوال .

ومن هنا جاء النهي عن الشرك والقتل متعلقاً بالفعل نفسه . وجاء النهي عن المال والفواحش متعلقاً بالقربان منهما . وعلى أساس من هذه النظرية الفطرية أو التي تشبه أن تكون فطرية – نستطيع إدراك الحكمة في تفرقة القرآن بين المحرمات التي علق النهي عنها بفعلها نفسه ، والمحرمات التي علق النهي عنها بالقربان منها . وهذا نوع فذ في الأساليب القرآنية يجدر بأرباب النظر في القرآن الكريم أن يتأملوه . فيغنيهم عن تكلف الاعتبارات التي يوجهون بها اختلاف عبارات النهي القرآني في الأسلوب .

(وبعد) فقد عني القرآن بشأن اليتيم عناية كبيرة . عني به من جهة ذاته . فنهى عن ازدرائه وإهانته . وجعل ازدراءه والاستخفاف به من علامات التكذيب بيوم الدين . « أرأيت

الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم »[1] . وعني به من جهة ماله . فأمر بالمحافظة عليه واستثماره . « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً »[2] . ومن جهة تربيته وتمرينه على التصرف بما ينفعه حتى يبلغ أشده – قوته ورشده – « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم »[3] وإنما خص الله اليتيم بهذه العناية لضعفه . والضعف دائماً يثير الطمع في الضعيف ؛ ولفقده الأب الذي كان يعوله . وفقد الأب يدفع غالباً إلى الفساد ؛ ولأن اليتيم من أفراد المجتمع . ينتفع المجتمع بخيره وينكب بشره . وأن المؤمنين كلهم وحدة متضامنة على مصلحة المجتمع . وعلى مصلحة الأفراد . لذلك كان نصيب اليتيم من العناية الإلهية ما نراه في القرآن عامة . مكيِّه ومدنيِّه . من التوصية به . والتحذير من إهماله . وما نراه في سورتي البقرة والنساء خاصة . « ويسألونك عن اليتامى . قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح »[4] .

---

(١) سورة الماعون ١–٢ .

(٢) سورة النساء ٢ .

(٣) سورة النساء ٦ .

(٤) سورة البقرة ٢٢٠ .

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم . فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً * إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » [1]

أيها الأوصياء . أيها الأعمام . أيها المؤمنون . هذا مبلغ وصية الله باليتيم . فاتقوا الله فيه . « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً » [2] .

(١) سورة النساء ٩–١٠ .

(٢) سورة النساء ١ .

الوَصيّة السابعة

وأوفوا الكيل والميزان بالقسط

لم ننته بعد من التحدث إلى السادة المستمعين عن الوصايا العشر التي تضمنتها الآيات الثلاث الواردة في أواخر سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... »[1] الآيات ، ولعلنا نذكر أننا قد فرغنا فيها من الحديث عن الوصية السادسة ، وهي الوصية الخاصة بحفظ مال اليتيم والنهي عن أكله ، وهي المذكورة بقوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده »[2] . وهذه هي الوصية السابعة ، الوصية بإيفاء الكيل والميزان ، وهي المذكورة بقوله تعالى في الآية الثانية من الآيات الثلاث : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها »[3] . وكلتا الوصيتين تحاربان في الإنسان خلقي الجشع والطمع في الحصول على ما ليس له ، وعلى ما لا حق له فيه ؛ وهما خلقان خبيثان

---

(١) سورة الأنعام ١٥١–١٥٣

(٢) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٢ .

يقوضان من المجتمع عمد الأمانة ، وأركان الأمن والطمأنينة .

وإذا كان أكل مال اليتيم ينشأ عادة عن استضعاف اليتيم وعجزه عن المحافظة على ماله – فإن أكل أموال الناس بنقص الكيل والميزان ينشأ عن طريق الاختلاس والسلب تحت المبادلة المالية التي لها خطرها في الحياة الاجتماعية ، والتي لا غنى للناس عنها ، فالبيع والشراء مما لا بد منهما في قضاء الضروريات والحاجات التي لا تقوم الحياة ، ولا ينتظم العيش إلا بهما ، ومن هنا قضت الحياة الاجتماعية بوجود التجارة التي تتبادل فيها السلع ، وتقضى عن طريقها المآرب . وللتجار بأصل مهنتهم مكانة عظيمة عند الله ، فهم يحصلون أرزاقهم وأرزاق أولادهم عن طريق جعله الله ابتغاء من فضله ، وهم في الوقت نفسه يساهمون في نوع من التعاون الضروري للجماعة البشرية ، ولكن من الناس من يدفعه الحرص على جمع الحطام إلى اقتحام السبل التي تسقط منزلته عند الله ، وتجعل منه في نظر الناس وحشاً لا يتورع عن جيفة ، ولا يأنف من خسيسة ، ومن هنا يفتح على نفسه باب الفجور ، ويضع بيده بذور الشر والفساد في مجتمعه ، فتنزع منه الثقة بعد أن ينتشر منه الفساد .

وللتجار الجشعين سبل كثيرة في أكل أموال الناس : فهم

تارة يعمدون إلى الغش في المبيعات بإخفاء عيوبها وإظهار محاسنها ، وتارة يلبسون السعر على الناس ويحاولون البيع بأزيد من السعر المحدد استغلالاً لحاجة المشتري ، وتارة يخلطون المبيع بغيره كخلط الأرز بالملح والسكر بالدقيق واللبن بالماء والسمن بجوزة الهند . ومن هذا النوع سقي الحيوانات الداجنة أو حقنها ليثقل ميزانها ، وقد تكون هذه الأساليب مما تفتقت عنه أذهان الجشعين والمسرفين في الجشع ولا سيما في هذا العصر الذي خف فيه ميزان الفضيلة ، وضعف وازع الدين والشرف عند من لا يخاف الله .

ولكن هناك علة قديمة مزمنة هي علة انتقاص الكيل والميزان ، وقد قص الله سبحانه علينا موقف بعض الأمم بالنسبة إلى هذه العلة الاجتماعية الخطيرة ، وأنه قد أرسل إليها أحد أنبيائه الكرام ، وأنه ضمن دعوته بعد توحيد الله التحذير من نقص الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم : « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها »[1] وهكذا قص الله علينا رسالة نبيه شعيب . وقد اقترن بهذه العلة

(١) سورة الأعراف ٨٥ .

في جميع مواردها من القرآن التحذير الشديد عن إفساد الأرض بعد أن أصلحها الله بحاجات الإنسان ، وبما منحه من قوى العقل والتفكير في مقومات الأمم وطيب الحياة . انظر إلى قوله : « ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » [1] . وإلى قوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » [2] . وقد توعدتهم الرسالة بالعذاب الأليم . وكانت عاقبتهم : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه . برحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة . فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » [3] .

وإذا كانت البشرية هي البشرية ، وشره النفوس هو شرها – فلا يكاد مجتمع يسلم من هذا الشر الوبيل ؛ ومن هنا عاد الوحي الإلهي يذكر تلك العلة في آخر كتبه ورسالاته وينظمها في عقد واحد أول حباته النهي عن الإشراك بالله وآخر حباته الأمر باتباع الصراط المستقيم الذي بينه الله في كتبه ، وبعث به رسله ، وجعل التحذير من هذه العلة علة نقص الكيل والميزان بجانب التحذير من أكل مال اليتيم ،

---

(١) سورة الأعراف ٨٥ .

(٢) سورة الأعراف ٧٤ .

(٣) سورة هود ٩٤–٩٥ .

فهذا استغلال لضعف اليتيم وذاك استغلال لغفلة المبتاعين ، فكلاهما استغلال . وكلاهما سلب بطريق خبيث . وكلاهما أكل أموال الناس بالباطل . أما قوله تعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها »[1] فقد قصد به رفع المسئولية عما يخرج عن ضبط الإنسان وقدرته من زيادة أو نقص ، والمعنى أوفوا الكيل بما في وسعكم غير متحرجين ولا متأثمين مما لا يسلم منه كيل ولا ميزان من زيادة طفيفة أو نقص طفيف .

جاءت هذه الوصية في سورة الأنعام وفي وصاياها العشر ، كما جاءت في سورة الإسراء ضمن ما قضاه الله وأحكمه لعباده وكلفهم إياه : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ... »[2] إلى أن يقول : « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم »[3] ، وقد اشتدت عناية القرآن بهذه العلة الخبيثة حتى كانت فيه سورة سميت بسورة « المطففين » فيها الوعيد الشديد . وفيها شرح لنفسية أرباب الجشع عن طريق تلك المبادلة التي لا بد منها ، واسمع أخي التاجر : بسم الله الرحمن الرحيم : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ،

---

(١) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٢) سورة الإسراء ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء ٣٥ .

وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » [1] .

أما بعد – فإذا كان التطفيف في حفنة من بر أو شعير ، أو أوقية من سمن أو لبن – مجلبة للغضب الإلهي – فكيف بالتطفيف في الحقوق العامة والواجبات الدينية وغيرهما من كل ما يتقاضى عليه الإنسان أجراً أو يتحمل مسئوليته ؟ إن الغش في رطل من اللحم أقل ضرراً من الغش في الرأي والعمل والفتوى والإرشاد والتوجيه والوظيفة ، وإن الغش في هذه النواحي غش يمتد خطره ويعظم خطبه ويهوي بالمجتمع إلى مكان سحيق ، فالحذر الحذر من نقص الكيل والميزان .

---

(١) سورة المطففين ١–٦ .

الوَصيّتَان الثَامنَة والتَاسعَة

العَدل في القَول وَالوَفاء بالعَهْد

وبعد فهاتان هما الوصيتان الثامنة والتاسعة من الوصايا العشر التي تضمنتها الآيات الثلاث الواردة في أواخر سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... » [1] الآيات وقد كانت الوصايا السبع السابقة تتعلق كل واحدة منها بفعل معين في جانب معين :

فأولاها – « ألا تشركوا به شيئاً » – تتعلق بتوحيد الله في العبادة ، والاستعانة ، والتوجه اليه في الشأن كله ؛ وهذه الوصية هي أساس الخير ومنبع الفضائل وسبيل الهدى والرشاد ، وهي إذا تركز معناها في القلب ، واستقر في النفس جلال الله وجماله ، ورحمته وسلطانه وإحاطته بظاهر الإنسان وخافيه – كانت باعثة له على امتثال أوامره وتنفيذ وصاياه ، فينتفع بخيرها في الدنيا وثوابها في الآخرة .

وثانيتها – « وبالوالدين إحساناً » – تتعلق بحق الوالدين على ولدهما ، وواجب الولد بالنسبة لهما ، وبذلك تنمو الأسرة

(١) سورة الأنعام ١٥١–١٥٣ .

على أساس يحفظ الحقوق والواجبات ، وتكون مثالاً حيا طيباً للأسرة الفاضلة التي منها ومن أمثالها تتكون الأمة الفاضلة .

وثالثتها – « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » – تتعلق بمحاربة خلق الغضب وضيق الصدر الذي يتولد عند الإنسان بما لا اختيار له فيه وهو الفقر ، فلا يدفعه نحو التكسب والاحتيال المشروع في تحصيل الرزق ، وإنما يندفع به إلى اغتيال أولاده ، أفلاذ كبده ، ودروعه في الحياة وذكراه في الممات ؛ فيقضي على نفسه بنفسه ، وتفسد إنسانيته ، وتضطرب به الحياة ، ولا يستقر له شأن ، ولا يصلح لعمل .

ورابعتها – « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » – تتعلق بالفواحش التي تنكرها العقول السليمة وتلفظها النفوس الكريمة وبها تسقط منزلة صاحبها عند نفسه وعند الناس ، فلا يقام له وزن ولا يوكل اليه خير .

وخامستها – « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » – تتعلق بحفظ عمارة الله في كونه ، تلكم العمارة التي هي الإنسان الذي خلقه الله وجعله خليفة في الأرض يعمرها وينميها ، ويظهر أسرار الله فيها . وترجع هذه الوصايا الخمس إلى حفظ العقيدة ، وتطهير النفس من مدنساتها الخلقية والعملية .

أما السادسة – وهي : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » – فهي تتعلق بعنصر الحياة ، وهو المال بالنسبة للضعيف الذي لا قوة له : تحفظ ماله ، وتدفع عنه غائلة المعتدين ، وهو اليتيم الذي فقد أباه الذي يرعاه .

وأما السابعة – وهي : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » – فتتعلق أيضاً بالمال بالنسبة لأكله واغتياله عن طريق المبادلة التي لا غنى للناس عنها . وإذا كانت الوصية السادسة تتعلق خاصة بمال اليتيم وبمن يستضعف اليتيم – فإن هذه الوصية تتعلق بجانب عام ، الفساد فيه فساد في مجموع الأمة ، وضرر عام يلحق كل مشتر وبائع .

أما الوصيتان الثامنة والتاسعة – وهما الوصيتان المذكورتان بقوله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »[1] ، وبقوله « وبعهد الله أوفوا »[2] – فهما وصيتان عليهما يدور أمر النظام العام في جميع الشئون في الأنفس ، وفي الأموال ، وفي الأقوال والأفعال ؛ هما أساس العمران ، وبهما انتظام الحياة وحفظ الحقوق ؛ وما سارع الفناء إلى أمة بسبب من أسباب فناء الأمم مثل مسارعته إلى أمة فشا فيها الظلم ، وانحرف

(١) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٢) سورة الأنعام ١٥٢ .

اهلها عن الحق وتمكن فيها خلق الغدر وعدم الوفاء بالعهد ؛ ومن هنا نجد القرآن قد عني كثيراً بالحث على هذين الخلقين الكريمين : العدل ، والوفاء بالعهد ؛ جاء الأمر بهما في مكي القرآن ومدنيه ، وجاء الأمر بهما عاما مطلقاً وخاصا معيناً . والعدل يرجع إلى تحري الحق وتقريره والعمل على إقراره وإظهاره ، وهو يكون في الأقوال عن طريق الشهادة ، وعن طريق الحكم ، وعن طريق كتابة الوثائق وتحريرها ، ويكون في الأفعال عن طريق التنفيذ وإعطاء الحقوق .

أما العدل في الشهادة فإنه يتناول الإفضاء بها وعدم كتمان شيء منها ؛ وفي ذلك يقول الله : « ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا »[1] ويقول : « ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه »[2] ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ؛ إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »[3] .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ .
(٢) سورة البقرة ٢٨٣ .
(٣) سورة النساء ١٣٥ .

وحسب المنحرف في شهادته أنه بانحرافه فيها يرتكب ألواناً من الجرائم وأنواعاً من الإساءات : يسيء إلى نفسه فيسقط منزلته ويبيع كرامته ، ويخسر شرفه ودينه لدنيا غيره ؛ ويسيء إلى المشهود له ، فيعينه على الظلم ، ويمكنه من اغتيال حق الخصم ، ويمهد له سبيل الخسران عند الله وعند الناس ، ويسيء إلى المشهود عليه ، فيضيع حقه ، ويخذله في وقت تشتد فيه حاجته إلى الناصر والمعين ليأخذ بيده في الوصول إلى حقه ؛ وبعد كل هذا يسيء إلى القاضي : يضلله . يفسد عليه أمره ، ويسيء إلى المجتمع بالتمكين للظلم والفساد ، لهذا كله كانت شهادة الزور من أكبر الكبائر عند الله .

هذا طرف من جانب المضار المترتبة على شهادة الزور وعلى عدم العدل في ناحية من الأقوال . وإذا كانت شهادة الزور في الحق الشخصي – وقد يكون حقيراً تافهاً – بهذه المثابة من الإنكار – فما بالنا بمن ينحرف في شهادته لغير الكافي في الأعمال العامة ، والهيمنة على شئون الدولة ، فيمنحه الكفاية ويختاره نائباً عنه وعن أمته في إدارة شئونها وسن قوانينها ؟

إن جرمه ولا شك جرم عام شامل لا يمكن أن يقاس بجرم شاهد الزور في دراهم معدودة أو قطعة أرض محدودة ؛ فليتق الله الناس في إدلائهم بشهاداتهم الانتخابية ؛ فإن

الانحراف فيها لا يودي بحق شخص ، وإنما يودي بحق الجماعة الذي هو حق الله .

أما العدل عن طريق الحكم فقد جاء فيه قوله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[1] وقوله تعالى : « إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً »[2] يريد أنك لا تنساق في حكومتك وقضائك إلى ما يزوره لك أرباب النفوس الفاسدة لتحكم لهم وهم مبطلون ، وعلى خصومهم وهم محقون : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً »[3] .

والعدل في القضاء يستدعي أولاً بحث القضية وتمحيصها من جميع نواحيها وسماع البينات العادلة التي لم تعرف بغش ولا خداع ولا كذب ولا تمويه ، ويستدعي التسوية بين الخصمين في مجلس القضاء . ويستدعي معرفة الحكم في القضية بعد تكييفها وسماع وجوه الإثبات والنفي فيها . وإذا

---

(١) سورة النساء ٥٨ .
(٢) سورة النساء ١٠٥ .
(٣) سورة النساء ١٠٧ .

أكملت هذه العناصر استطاع القاضي أن يعدل في قضائه وحكومته ، ورجا أن يكون عدلاً مرضيا عند الله .

أما بقية ما عرض القرآن للعدل فيه من شئون الناس وما عرض له في شأن الوفاء بالعهد فموعدنا به الحديث المقبل إن شاء الله .

الوَصيّة الثّامنة

العَدل

وبعد فهذه هي الوصية الثامنة من الوصايا العشر الواردة في سورة الأنعام : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » [1] .

والقرآن قد عني عناية كاملة بالعدل : عني به في مكيه ومدنيه . وحذر كذلك مقابله ، وهو الظلم في مكيه ومدنيه . ثم أمر به عاما وأمر به خاصا : أمر به عاما حتى مع الأعداء الذين يحملون لنا ونحمل لهم من الشنآن والبغض ما تنوء بحمله القلوب : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » [2] . وأمر به خاصا في شئون لها أهميتها في حفظ الحقوق وطيب الحياة : أمر به في الشهادة ، فلشهادة الزور التي ينحرف بها أهلها عن وجهها الصحيح آثار سيئة في الشاهد والمشهود له والمشهود عليه ، وفي القاضي وفي المجتمع ، وهي لذلك كانت في حكم الله من أكبر الكبائر .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٢) سورة المائدة ٨ .

أمر به في القضاء والحكم بين الناس : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعِمّا يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً »[1] . وإذا كان العدل في الشهادة – وهي إحدى طرق القضاء بهذه المكانة التي وردت في القرآن . وكان للعدول فيها عن العدل تلك الآثار السيئة المقوضة لهناءة الجماعة ، المضيعة للحقوق ، المفسدة للأخلاق والذمم – فما بالنا بالعدول في القضاء عن العدل ، والقضاء هو الأداة المهيمنة الفعالة في حفظ الحقوق وصيانتها ؟ هو القوة التي توضع في يد الضعيف ويشد بها أزره حتى يأخذ حقه ، هو السيف الذي يجرد في وجه القوي حتى لا يأكل حق غيره ! ليس من شك في أن العدل القضائي في الشرائع سماوية أو أرضية – أول العمد التي يقام عليها صرح الحياة الاجتماعية . وقد أرشد القرآن إلى أن الله ما بعث الرسل وأيدهم بالبينات ، وأنزل معهم الشرائع والأحكام – إلا لتوجيه الناس إلى العدل ، وتطهير المجتمع البشري من الظلم : واقرأ في ذلك قوله تعالى :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع

---

(١) سورة النساء ٥٨ .

للناس »[1] . اقرأ هذه الآية ، وانظر كيف ذكرنا فيها بالحديد وما فيه من بأس ؛ لتعلم أن الله يطلب العدل ، ويطلب إقراره بين الناس ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة التي مكن منها أولياءه بتسخير الحديد ، وما يصنع منه من آلات القوة والقهر . إن القرآن لم يقف هذا الموقف بالنسبة لمبدأ ما من مبادئ الإسلام حتى مبدأ التوحيد لله : فهو لم يأمر باستعمال الحديد والقوة بالنسبة للذين جحدوا وحدانية الله ، وأشركوا معه غيره في العبادة ؛ ولكنه وقفه في وجه الظالمين الذين يستمرئون البغي والعدوان على الآمنين في أوطانهم ، المقيمين على شئونهم ، وقف في وجههم ولو كانوا في عداد المؤمنين به المقرين بوحدانيته « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله »[2] ؛ وهكذا كان حكمه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين .

وأمر به في الأسرة فشرط لإباحة الإقدام على تعدد الزوجات – أمن النفس من الجور واطمئنانها على القيام بحقوق الزوجتين أو الزوجات : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة »[3] ثم

---

(١) سورة الحديد ٢٥ .

(٢) سورة الحجرات ٩

(٣) سورة النساء ٣ .

يقول : « ذلك أدنى ألا تعولوا »[1] : يريد أن الاكتفاء بواحد أقرب إلى عدم العول ، والعول هو الجور والميل إلى أحد الجانبين دون الآخر : « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة »[2] وانظر هنا كيف جعل الله مجرد الخوف من عدم العول مانعاً من إباحة ما أباحه وشرعه ، وهو تعدد الزوجات وقد دل هذا على أن إباحة الله لشيء ما مشروطة بألا يترتب على فعل هذا المباح ضرر أو إيذاء ، وأنه متى صحبه ضرر أو إيذاء وجب منعه وخرج عن أن يكون مباحاً ؛ وهذه قاعدة تشريعية إسلامية ، تعمل عملها في كل ناحية من نواحي الحياة ونواحي التشريع . وحسب الذين لا يعدلون مع زوجاتهم قوله عليه السلام : « من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » .

وكما طلب العدل بنص خاص في الزواج الذي به بناء الأسر المكونة للأمم طلب كذلك بنص خاص في معاملة الأبناء محافظة على تماسك الأسرة وإشاعة المحبة في آفاقها وبعداً بها عن التفرق والانحلال ؛ وفي سبيل ذلك أنكر على الناس تفضيل بعض الأبناء في العطاء على بعض ؛ وقد جاء

(١) سورة النساء ٣ .

(٢) سورة النساء ١٢٩ .

ذلك في حادثة بشير مع ولده النعمان : منحه منحة لم يمنح سائر أولاده مثلها ، فقالت له زوجته : لا أرضى لولدي بهذه العطية حتى تشهد عليها رسول الله ؛ فذهب إلى رسول الله ليشهده عليها فسأله الرسول : « أعطيت كل ولدك مثل ما أعطيت النعمان ؟ فقال بشير لا يا رسول الله ؛ فأمره الرسول بالرجوع في العطية ، وقال له إني لا أشهد على جور ! اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ؛ إن لبنيك عليك أن تعدل بينهم كما أن لك عليهم أن يعدلوا في برك ! » ؛ وبذلك رجع بشير في عطيته ؛ فليعتبر بهذا هؤلاء الآباء الذين قد تخدعهم عن العدل مع أبنائهم زوجة طائشة أو ولد ماكر مخادع ، فيفرقون بين أبنائهم ، ويوقعون بينهم العداوة والبغضاء : فيضرب بعضهم رقاب بعض ، ثم يضربون بعد ذلك من فرق بين إخوتهم ، وهو الأب الأخرق ! .

وكذلك طلب العدل بنص خاص في كتابة الوثائق التي بها تحفظ الديون ، والتي تحدد شروط الالتزام . وقد نزلت فيه أطول آية : « وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل

وليه بالعدل »[1] ، ثم يقول في ثمرة هذه الأوامر وحكمتها : « ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا »[2] .

وإذا كان قوله تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »[3] خاصا بالعدل في الأقوال – فقوله : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط »[4] – خاص بالعدل في الأفعال وتصرفات الإنسان في جميع الشئون والأحوال لا تخرج عن الأقوال والأفعال ، وإذن فالعدل مطلوب الله وشرعه في كل قول ، وفي كل فعل . والعدل أقوى عمد النظام ، وأفعل وسائل الألفة والمحبة بين الناس ، وأنقى للحياة من عوامل الحقد والضغينة التي تجعل أفراد الإنسان في مجتمعهم كوحوش الغاب يأكل قويهم ضعيفهم ، فالعدل العدل أيها الناس .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٢ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٤) سورة الأنعام ١٥٢ .

الوَصيّة التاسعة
الوَفاءُ بالعهد

الوفاء بالعهد من أهم الوصايا الخلقية التي جاء بها الإسلام ، وعني بها القرآن . والعهد اسم لما التزم الإنسان فعله أو المساهمة فيه . وأخذ على نفسه أن يحققه ويقوم به منفرداً بنفسه أو مشتركاً مع غيره مما يرضي الله ويحبه ويدعو اليه .

والوفاء بالعهد أساس الخلق الفاضل ، وآية النفس القوية ، والقلب الطاهر الجريء وقلما نجد من يحترم عهده فرداً أو جماعة – ولم يتبوأ من الشرف قمته ومن المجد ذروته ، ومن هنا كان للوفاء بالعهد في القرآن الكريم مكانته : أمر به وحض عليه ، وبالغ في طلبه : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » [1] ، « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » [2] ، « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » [3] .

---

(١) سورة النحل ٩١ .
(٢) سورة الإسراء ٣٤ .
(٣) سورة الأحزاب ٢٣ .

والوفاء بالعهد سبيل قوي لتبادل الثقة ، وتبادل الثقة من أقوى عناصر الحياة الآمنة المطمئنة ، وحسب الإنسان فرداً أو جماعة في تدهور منزلته وسقوط كرامته أن يعرف بين بيئته أو عند الناس بنقض العهود ، وعدم الوفاء بالالتزامات ، ومن هنا – احتفاظاً بكرامة الإنسان – نهى الله عن نقضها ، وجعل نقضها من صفات الفاسقين الذين لا أخلاق كريمة لهم . وشبه الذين ينقضون العهد بالمرأة الخرقاء التي كلما أتمت غزلها وأحكمته عادت اليه فنقضته أنكاثاً من بعد قوة كما جاء في سورة النحل[1] .

والعهود في القرآن – كلمة ترادف العقود . وهي تشمل ألواناً من الارتباطات والالتزامات ، الناس في حاجة اليها . ولا استقامة للحياة بدونها . والعهود على كثرتها ترجع باعتبار مصدرها إلى عهد فطري ، وعهد تكليفي ، وعهد عرفي .

أما العهد الفطري فهو ما تقتضي به فطرة الله التي فطر الناس عليها : ملأ الكون بالآيات الدالة على وجوده وحكمته وقدرته وعظمته ، ومنح الإنسان عقلاً به يفكر ويستدل ، وأعده للنظر والاسترشاد ، وكأنه بهذا وذاك أخذ على الناس عهداً أن يؤمنوا به وألا يشركوا به شيئاً ، وأقام بهذا العهد الحجة

(١) آية ٩٢ فارجع إليها إن شئت .

عليهم ، أن يقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم . ولعل هذا العهد الفطري هو ما أشار إليه القرآن بقوله « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم . الست بربكم ؟ قالوا : بلى »[1] .

وأما العهد التكليفي فمنه عهد عام أخذه الله على الإنسان لأخيه الإنسان بحكم ما بينهما من صلة الرحم الإنسانية فباسم الإنسانية يرحمه ولا يقسو عليه ، وباسم الإنسانية ينهضه ولا يستعبده ، ويعينه ولا يستغله ، ويحفظ دمه فلا يريقه ، وماله فلا يستلبه ؛ وعرضه فلا ينتهكه : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً »[2] .

ومنه عهد خاص بالمؤمنين بالنسبة لشرع الله الذي به آمنوا ، فإنهم بإيمانهم أخذوا على أنفسهم لله عهداً أن ينفذوا أوامره وأن يجتنبوا نواهيه .

ومنه عهد خاص بأرباب الأعمال والولايات : فالحكام

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٢) سورة النساء ١ .

والموظفون والتجار والزراع والعلماء ، والآباء والأمهات ، وكل ذي عمل عام أو خاص – عهدهم لله وعهد الله لهم أن يحسنوا في أعمالهم وأن يتوخوا العدل والمصلحة فيها . ومن أهم ما نص عليه القرآن من أنواع العهود ما تضمنه في قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[1] ، وما تضمنه في قوله تعالى بالنسبة لحملة الأقلام والدعاة والمرشدين الذين لهم في الأمة مكان القيادة والتوجيه « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »[2] ؛ « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم »[3] – وقد أشار القرآن إلى نوع من العهود ، هو في مكان القمة من جهة بناية الأمة وحفظها وتركزها واطراد سيرها إلى الأمام ، ذلكم النوع هو ما دل عليه قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ؛ ثم جاءكم رسول مصدق لما

(١) سورة النساء ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة ١٥٩–١٦٠ .

معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »[1] وهو في واقعه وروحه ومعناه عهد لكل من اضطلع بطرف من مسئولية الأنبياء وقام بشيء من وظائفهم : فهو عهد الله للمصلحين على المصلحين بأن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً واتجاهاً واحداً نحو الإصلاح العام الذي به يؤمنون ، وعليه يتعاونون ، يقر آخرهم فيه عمل أولهم ، ويمهد أولهم للاحقهم ، وإذن لا ينبغي أن يكون مصلحو زمن أو مكان – أمة في أنفسهم ؛ يهدم أحدهم ما بناه الآخر ولو كان خيراً وصلاحاً .

أما العهود العرفية فهي ما تعاهد عليها بعض الناس مع بعض أفراداأو جماعات ، وهذه أيضاً – في حكم القرآن – يجب الوفاء بها ما لم تكن في معصية الله ، كما يقول فقهاء الإسلام ، أو ما لم تخالف النظام العام ، وأصول القوانين المرعية كما يقول رجال القانون . والقرآن يبني عهد الدولة للدولة على أن تصان لكل أمة حريتها ، وأن يمكن كل شعب من حقه في الحياة ، وما يكون من المعاهدات على غير هذا الوجه فهي عهود ظالمة غاشمة ، هي عهود أداة خصام وحقد

---

(١) سورة آل عمران ٨١ .

وضغينة . وكم من أمم عبثت بالعهود ، وخالفت فيها الحقوق الطبيعية ، فأذاقها الله الويل من أعدائها ، وسلط عليها من يقتص منها ، « إن ربك لبالمرصاد »[1] .

أما بعد – فهذه هي الوصية التاسعة من الوصايا العشر الواردة في أواخر سورة الأنعام والمذكورة بقوله تعالى : « وبعهد الله أوفوا »[2] .

(١) سورة الفجر ١٤ .
(٢) سورة الأنعام ١٥٢ .

الوَصيَّة العَاشِرة

صِرَاط الله المُستَقيم

هذه هي الوصية الأخيرة من الوصايا العشر الواردة في سورة الأنعام وهي المذكورة بقوله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1] .

وهي الوصية الكلية الجامعة العامة التي تحدد وضع الإسلام وتعاليمه التي وضعها أو وضع أصولها القرآن بالنسبة لوضع النظم البشرية وتعاليمها التي يستقل الإنسان بوضعها ويدعو الناس اليها ، ويفرض عليهم أن يتبعوها .

والوصية في هذا السبيل تقرر أن تعاليم القرآن ونظمه هي صراط الله المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، صراط الله المستقيم الذي يأخذ في كل ناحية من نواحي الحياة مركز (الوسطية) الذي يحفظه ويقيه جانبي الإفراط والتفريط ، جانبي التدهور والانحلال والتفرق . فهو مستقيم في العقيدة

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

بين الذين ينكرون الإله ، ويزعمون أن الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات أو التفاعل المادي ، والذين يقولون بتعدد الألوهية والربوبية . « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »[1] « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »[2] .

وهو مستقيم في الأخلاق بين الذين يتحللون من كل الفضائل والذين يشتطون في تصور الفضيلة والتزام طرف التشدد فيها ، يقرر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : لا جبن ولا تهور ، لا بخل ولا تبذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لا جزع ولا استكانة . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً »[3] .

وهو مستقيم في صلة الإنسان بالحياة ومتعها . يأبى المادية البحتة التي لا تعرف شيئاً وراء ما يقع عليه الحس من طعام وشراب ولذة وشهوة وتكاثر وتفاخر ، ويأبى الروحية البحتة

---

(١) سورة الاخلاص ١-٤ .

(٢) سورة الأنعام ١٦٢-١٦٣ .

(٣) سورة الأسراء ٢٩ .

التي تزهد في الحياة ولا ترفع لزينة الله فيها رأساً . وتقضي بالحرمان منها ومن التمتع بها : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »[1] « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »[2] .

وهو مستقيم في تحديد علاقة الفرد بالمجتمع . لم يترك الفرد طليقاً كالوحش في الفلاة يعبث ويفترس ، ويتحكم في الضعيف ويهمل شأن مجتمعه ، ولم يلغ شخصيته ويذيبه في المجتمع ، ولكن جعله ذا شخصية مستقلة ، وفي الوقت نفسه جعله لبنة في بناء المجتمع ، وبذلك بادل بين الفرد والمجتمع الحقوق والواجبات يشقان بها طريق الحياة الفاضلة المتعاونة التي لا عدوان فيها ولا بغي والتي لا اعوجاج فيها ولا انحراف .

وهو مستقيم في علاقة الأمة بغيرها من الأمم : لم يرض لمعتنقيه بحياة الضعف والذلة والاستسلام ، وكذلك لم يرض لهم بحياة الظلم والفتك والعدوان ، ولكن رسم لهم طريق القوة التي لا تضعف ، والعزة التي لا تذل والاستغناء الذي لا يحتاج إلا عن طريق التعاون والسلام ، أمر بالعلم والصناعة

(١) سورة القصص ٧٧ .

(٢) سورة الأعراف ٣٢ .

وتحصيل الأموال وتكوين قوة الدفاع ، وأمر بمعاملة الناس بالحسنى ودعوتهم إلى الحق بالحجة والبرهان ، ولم يسمح بامتشاق الحسام وإراقة الدماء إلا دفعاً لبغي ، أو صيانة لحق .

وأخيراً هو مستقيم في طريقة التشريع ووضع القوانين ، لم يدع الناس يشرعون لأنفسهم في كل شيء ، ولم يقيدهم بتشريعات خاصة جزئية في كل شيء بل شرع ونص وترك وفوض ، شرع ونص على تشريعه فيما لا تستقل العقول بإدراكه ، وفيما لا تختلف فيه المصلحة باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، شرع في العقائد وفي العبادات وفي أصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل وانتهاك الأعراض وحفظ الدماء والمعتقدات .

ومن هنا بوأ الإسلام أهل الفكر والنظر وتقدير المصالح مكاناً عليا في مصدرية الشرائع والتقنين ، وأعطى العقل البشري حظه من التكريم والاحترام ، وفوض اليه التشريع فيما تحتاج الأمة بحسب أزمنتها ومصالحها .

هذه هي الخطوط الأولى لتعليم القرآن ، بها يتجلى معنى قوله تعالى في هذه الوصية : « وأن هذا صراطي مستقيماً » [1] .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

وإذ كان هذا هو حقيقة القرآن وما تضمنه من تعاليم كما أخبر به واضعه ومنزله ، وكما يتضح لمن ينظر فيه ويفقه – فليس بعد الحق إلا الضلال ، وليس بعد الاستقامة إلا الميل والانحراف ؛ وإذن فالواجب الذي يقضي به العقل المجرد من الهوى والشهوة هو اتباعه وامتثاله واتخاذه سبيل الحياة ودستورها ، وهذا هو قوله تعالى تفريعاً على البيان السابق : « فاتبعوه »[1] وقد كثر في القرآن أمر الله باتباعه « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم »[2] ، « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير »[3] ولقد كان أول ما أرشد الله عباده أن يدعوه به دعاء التوفيق إلى التزام الصراط المستقيم والعمل به ، وذلك قوله تعالى في فاتحة الكتاب : « اهدنا الصراط المستقيم »[4] ؛ فهو صراط العلم والعمل بأحكام الله وشرائعه . وقد استرعى إلى تلكم العاقبة الطيبة التي حصل عليها – بالتزامه والسير على مقتضاه – خواص عباده الذين حازوا عنده مكانة المنعم عليهم حتى أضيف

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف ٣ .

(٣) سورة هود ١١٢ .

(٤) سورة فاتحة الكتاب ٦ .

الصراط اليهم ، وبه كانوا من الله في محل النعمة والرضا : « صراط الذين أنعمت عليهم »[1] .

لم تقف الآية عند حد الأمر بالصراط المستقيم ، بل أمرت باتباعه ، وحظرت اتباع غيره ؛ وكان بذلك لها أمران باتباعه : أمر صريح ، وهو قوله : « فاتبعوه »[2] ، وأمر ضمني ، وهو تحذير اتباع غيره المذكور بقوله تعالى : « ولا تتبعوا السبل »[3] ، ثم لا يقف عند هذا النهي ، وإنما يبين له آثاره السيئة من تفرق الوحدة وتشتت الشأن ، ويشير إلى كثرة منابع الشر ونواحي الضلال وإلى أن الحق واحد لا تعدد فيه ، فالباطل يأتي من التصور الفاسد ، ومن الشهوة والهوى ، ومن العصبية والجنسية ، ولكن صراط الله ينبع من الحقيقة الخالدة التي تسمو عن فساد التصور ومن بواعث الهوى والشهوة .

أما بعد – فهذا هو صراط الله المستقيم الذي لا يضل سالكه ولا يهتدي تاركه ؛ فهل للمسلمين – وقد تعددت فرقهم ، وتفرقت سبلهم ، واختلفت بهم الأهواء – أن يرجعوا إلى

---

(١) سورة فاتحة الكتاب ٧

(٢) سورة الأنعام ١٥٣ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٣ .

كتاب الله فيعرفوا منه الصراط المستقيم ، ويجعلوه أساس حياتهم وعماد عزتهم : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً » (سورة النساء ٦٦-٦٨).

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروقك - تلكس : 93091 SHROK UN